

## العارفة بالله رابعة الشامية في (مدينة دمشق)

الباحثة نبيلة القوصي

راحتي يا إخوتي في خلوتي      وحببي دائما في حضرتي  
لم أجد لي عن هواه عوضا      وهواه في البرايا محنتي  
حيثما كنت أشاهد حسنه      فهو محرابي، إليه قبلتي

إخوتي الكرام:

من مدينة دمشق الحبيبة التي تفخر دوماً بمديح النبي صلى الله عليه وسلم عندما قال: **"..إذا فسد أهلها فلا خير فيكم"**، والتي تزخر بنماذج رائعة من النساء الفاضلات والمحدثات والفتيات والعارفات بالله.. نقف عند سير بعضهن وقفة تأمل نتلمس فيها من بعض آثارهن ونهجنّ الروحاني المنبعث من أرضها.. ندعوكم من خلال زاوية (معالم وأعيان)، لقراءة متأملة ومتبصرة لسير أهل الإخلاص والعشق الإلهي، الذين سَطَّرت أسمائهم في كتب التاريخ تحت عنوان: **العشق الإلهي، فأى شرف وعزّ نالهم؟! هنيئاً لهم! ونرجو الله ألا يحرمننا من تدوِّق حلاوة هذا الحب المقدس: بالقلب والجوارح قبل اللسان..** نطلّ عليكم اليوم، بسيرة إحدى العارفات بالله التي اشتهرت بأقوال وأحوال لها في حب وعشق الله عز وجل والشوق إليه.. وما الشوق إلا عبارة عن رحلة روحية يقوم بها الإنسان بوجدانه وكيانه إلى الله وحببيه وصفية..

سندخل وإياكم بوابة المعرفة التاريخية دخولاً مميّزاً بمشاعر الحب و الشوق، وأي شوق؟!.. ألا وهو الشوق إلى الله ورسوله، نتأمل قول الله عز وجل، وقول نبيه الكريم، بماذا نصحونا؟

قال تعالى: **((قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله...))**. فإتباع النبي مع المحبة بداية هذا الطريق...

وقال صلى الله عليه وسلم: **"أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي الحبي"**.

وقال: **"لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده وأهله والناس أجمعين"**.

فِعشُ أيها الدمشقي في أعلى درجات هذا النعيم من الشوق، وهيا تُرهف السمع بأفئدتنا لأقوال هذه العارفة، عسى الله أن يتولانا بعظيم رحمته ورعايته وينقذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا قبل الرحيل إليه.....

من هي هذه العارفة بالله؟

هي رابعة بنت سليمان الشامية، محدثة من محدثات وعبادات الشام، لها أحوال شتى: مرة يغلب عليها الأُنس، وأخرى يغلب عليها الخوف.... وما خاب عبد عاش بين جناحي الخوف والرجاء، فنحن في خوف مستمر من الله عز وجل لأننا لسنا سوى عبيد له تعالى، فهو الرب والإله القادر.. ولكن حبه لنا ورحمته بنا هما اللحن الجميل الذي نغيا به...

تُجمع المصادر أن فترة حياتها كانت في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث للهجرة، فهي تعد من أتباع التابعين، توفيت عام ٢٢٩ هـ.



يقول الذهبي في سير الأعلام : أنها أصغر من رابعة العدوية البصرية الملقبة بـ (أم الخير) التي توفيت عام ١٣٥ هـ.. وقيل ١٨٠ هـ.

ويقول : كان لرابعة الشامية حكايات وكرامات تداخلت مع حكايات رابعة العدوية البصرية، ذلك لأن صيتهما وشهرتهما بلغت الآفاق بالعشق والحب الإلهي...  
لكن رابعة العدوية لم تتزوج في حياتها، بينما رابعة الشامية كانت زوجة للشيخ أحمد بن أبي الحواري الزاهد العابد الذي توفي عام ٢٨٥ هـ  
وتخبرنا الحوليات الأثرية أن رابعة الشامية مدفونة عند (المدرسة القيمرية) بدمشق، ومشهدا إلى جانب المدرسة..



من أقوالها:

\* ما سمعت الأذان إلا ذكرت منادي القيامة، ولا رأيت الثلج إلا رأيت تطاير الصحف، ولا رأيت جراداً إلا ذكرت الحشر..

\* إن العبد إذا عمل بطاعة الله أطلعه الجبار على مساوئ عمله فتشاغل به ..

\* أستغفر الله من قلة صدقي في قولي استغفر الله...

\* وقال زوجها: دعوت رابعة فلم تجبني، فلما كان بعد ساعة أجابني وقالت: إنما منعي من أن أجيبك

أن قلبي قد كان امتلاً فرحاً بالله، فلم أقدر أن أجيبك..

\* وقال: إذا طبخت قدراً قالت: كلها يا سيدي فما نضجت إلا بالتسبيح...

\* وكان مما قالت:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي  
فالجسم مني للجلس مؤانس  
وزادي قليل ما أراه مبلغني  
أتحرقني بالنار يا غاية المنى  
وأبحت جسمي من أراد جلوسي  
وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي  
أللزد أبكي أم لطول مسافتي؟  
فأين رجائي منك؟ أين محبتي؟

ندعو المولى أن ينفعنا ويلهب أرواحنا بالشوق والحب له من دون ابتلاء، وأن يلهم نفوسنا الإنابة المستمرة إليه، والمجاهدة في محراب ألوهيته وربوبيته بذل وانكسار بين يديه، ويصلح أعمالنا وسرائرنا بإحسان ورحمة وتفضل منه...

إخوتي القراء:

لم نجد في كتب التاريخ عن رابعة الشامية سوى ما ذكرناه، لكن من صميم سيرتها يرتشف القلب متعة وأنس، ألا بذكر الصالحين تنزل الرحمت.. ولنكمل معا في وصف حال هؤلاء العارفين بالله.. ربما يحن ويشتاق قلبك لسلوك إيمانها روحانيا يوصلك إلى الحبيب...

هم صنف من أولياء الله وأتقيائه، أعلاهم مرتبة وقربى من الله، ذلك لأنهم يحملون قلوباً طاهرة سليمة وضاء تنبض بحب الله ورسوله، ينيرون للخلق السبيل بهذا النور الذي ورثوه من النبوة المحمدية، ليقندي بهم ويهتدي بهديهم العباد..

فالعارفون بالله يا إخوتي، هم بقية الله في الأرض.. وما أروع من وصف وحال، لكن الصعوبة في التطبيق ومجاهدة النفس وهواها، حتى تبقى صافية نقية، ويبقى القلب سليماً طاهراً يتشرف في دخول أجواء معنى قوله تعالى: ((..ولا تخزني يوم يبعثون \* يوم لا ينفع مال ولا بنون \* إلا من أتى الله بقلب سليم)).

واقراً، أخي المتبصر المتأمل، كلمات للإمام الرفاعي، سلطان العارفين، يعرّف المعرفة الإلهية قائلاً: (المعرفة الإلهية، شجرة نورانية ثمينة الجواهر مثمرة الأغصان حلوة الثمار، نقيّة أرضها، عذب مأوها.. وشجرة المعرفة الإلهية لا يغرسها الله عز وجل إلا في بستان قلب عبد مؤمن سليم من الأحقاد.. فالعارف بالله له أربعة أجنحة: الخوف والرجاء والحب والشوق.. والمعرفة لا تجيء بالتعمّي والتغّي..). اللهم أدركنا من أحلام الغفلة قبل فوات الأوان، واجعلنا من المعتبرين قبل يقظة الموت.....

### ماذا بعد يا إخوتي؟

جولة سياحة روحانية مع الصالحين من فوق أرض دمشق لا بد أن تكون نسماها مميزة... فجهادهم بدأ من القلب حتى يبقى سليماً، وهذا هو لب القصيد لكل واحد منا.. ولا ننسى قول النبي صلى الله عليه وسلم عندما أراد أن يلفت انتباه الصحابة، ونحن من بعدهم لأمر هام، عندما قال: "يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة". وعندما بحثوا عن السبب....

كان الجواب: أنه ينام وليس في قلبه غلّ لأحد!.. أي سليم القلب صافياً من الأحقاد والأطماع.. ألم يقل مرّينا العظيم: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))

و يؤسفنا أن تغيب هذه المعاني والقيم النبوية الرائعة التي أرادها الله ونبيه لنا لتكون بها شامة بين العباد، حتى ينادي علينا يوم القيامة فندخل في زمرة.. اللهم لا تحرمنا ذلك يا رب...

### المصادر:

- سير الأعلام/ للذهبي.
- صفوة الصفوة/ لابن الجوزي.
- الحوليات الأثرية العربية السورية.